مقام البترول

في سياسات الامم الحربية والصناعية

لما اشتدت الحرب الكبرى ، وضيق الخناق على فرنسا ، في ايامها الاخيرة وقبيل انفراجها النهائي كاد البترول ينفد من مستودعات فرنسا ، فاضطرب كليمنصو وقلق ، فأرسل برقية فيها توسل شديد ودعاء حار طالباً من الرئيس ولسن ان يمد فرنسا بالبترول . ولخصت الصحف هذا التلغراف حينئذٍ بقولها ان كليمنصو قال لولسن : « كل قطرة بترول تعدل قطرة دم »

والبترول ، في هذا العصر ، مقام خاص في حياة الدول السلمية والحربية ، ولذلك تسعى الشركات الكبيرة والحكومات الى السيطرة على منابعه ، وحول هذا السعي نسجت طائفة من الدسائس الدولية تبعث على الدهشة في دقتها وإحكامها . وفي سبيل هذه السيطرة ثار الثورات والحروب الاهلية أحياناً ، لكي يمنع فريق من اصحاب المصلحة فريقاً آخر منافساً له ، من الفوز بالمنابع دونه. فقد قرأنا عن الثورات المتعاقبة التي حدثت في المكسيك من مطلع هذا القرن الى الآن ، ما حملنا على عزو هذه الثورات الى فوران الدم المكسيكي وحرارته واندفاعه ، طبيعة وورثا عن أسلافه ، وتعزوها احوال البلاد المناخية وتاريخها الحديث . ثم اطلعنا على كتاب لكاتب يحمل تبعة ما ينشره باسمه ، ان شركات البترول ، في اوربا واميركا ، كانت تتنافس على الفوز بمنابع البترول الغنية في المكسيك فاذا كان صاحب السلطة يميل الى فريق منها ، بذل الفريق الآخر المال لاثارة الخواطر ، ومنّى زعيماً آخر بالتأييد والمال ، اذا هو نقله الحكم ومنحهم ما يطلبون من الامتياز ، وليس في هذا التعليل ما هو غير معقول . فما هو السر في ذلك ؟

الحضارة الحديثة قائمة على الصناعة الآلية ولا بد للصناعة الآلية من الوقود . وفي هاتين العبارتين يتلخص سر مقام البترول في شؤون الدول . ذلك ان البترول يفوق كل اصناف الوقود المستعملة في الصناعة حتى الآن

فاستنباطه سهل كل السهولة ونقله أسهل فليس على الشركة التي تملك منابع بترولية الا ان تمدّ الانابيب من منطقة المنابع الى معامل التقطير او الى اقرب المرافىء فينقل في سفن خاصة صنعت لنقله . كذلك تقل نفقات العمال الذين يتولون استنباطه وتصفيته ونقله الى أدنى حد ممكن . ثم ان الحرارة التي يولدها قنطار معين منهُ تضعف الحرارة التي يولدها مثل ذلك المقدار من أفخر انواع الفحم . وهذه الامور تضمن لهُ سعراً نسبيًّا أرخص من سعر الفحم ، وتجعل صناعته بمنزل عن التقلقل الصناعي التي تستولي على المعدنين وغيرهم من طوائف العمال

لذلك نرى استعمال هذا السائل الثمين ، هذا « الذهب الاسود » كما دُعي ، يتسع نطاقه رويداً رويداً في السفن الحربية والتجارية وسكك الحديد والصناعات على اختلافها ، فضلاً عن السيارات

والطيارات وما اليها . ففي الولايات المتحدة التي بلغت أرقى مستوى من التقدم الصناعي يستعمل البترول في معظم مصانعها . وشركات السكك الحديدية في أميركا وروسيا تستعمله في قاطراتها مؤثرة اياه على الفحم . على أن فوائده تتجلى في السفن الحربية والتجارية . واليك المثل :—

لنفرض اننا نريد الموازنة بين سفينتين مماثلتين ، احداهما بخارية يسيرها الفحم والاخرى يسيرها البترول . وان قوة كل منهما ٢١ الف حصان فالآلة البخارية التي تولد ٢١ الف حصان يجب أن يكون وزنها نحو ٣٤٠٠ طن ، وأما الآلة البترولية التي تولد القوة بنفسها فوزنها الف طن فقط . كذلك تستهلك الاولى نحو ٣٦٠ طناً من الفحم كل يوم . أما الثانية فتستهلك مائة طن من البترول لتوليد القوة نفسها . فاذا استعدت السفينتان لرحلة طولها خمسة عشر يوماً ، وجب على الاولى ان تتسع ٥٤٠٠ طن من الفحم تملأ ٧٠٠٠ متر مكعب ، أما الثانية فتكتفي بألف وخمسمائة طن من البترول تملأ نحو ١٧٠٠ متر مكعب

فينجم من ذلك ، ان الباخرة (أي السفينة البخارية) لا تستطيع مما تتسعه من الوقود أن تسير اكثر من خمسة عشر يوماً ، من دون ان تدخل الى مرفأ خاص لتتسع لغيرها . مع انها لو استعملت مخازن الفحم فيها ، لخزن البترول ، وحولت آلتها البخارية الى آلة بترولية لتمكنت من المسير ٢٧ يوماً من دون ان تضطر الى دخول مرفأ ما لهذا الغرض

أما السفن الحربية فتتفوق البترول على الفحم فيها أجلى منهُ في السفن التجارية

ان مداخن السفن الحربية المسيرة بقوة الفحم . والدخان المنطلق منها ، تنمُّ على السفن نفسها من بعد عشرة كيلو مترات ، لكن السفن التي تسير بالبترول لا ينطلق منها دخان ولا لهباب ، ولا حاجة بها الى المداخن ، فلا تبدو السفينة الحربية منها ، في منظار قائد العدو ، الا خطاً رمادياً على الأفق

ثم ان الاسطول المسيَّر بالبترول ليس مضطراً ، الى دخول المرافىء لتزوُّد الوقود ، اضطرار الاسطول المسير بالفحم . وهو لذلك أخف وزناً وأعظم سرعة ، فاذا قل ما يجب أن يحمله من الوقود ، للسبب الذي قدمناه ، تمكن صانعوه من استعمال فرق الوزن في زيادة كثافة دروعه وضخامة مدافعه

ومما يمتاز بهِ الاسطول الحربي المسيَّر بالبترول سرعة حركته ، فاشعال النار في الفحم وتوليد الضغط الكافي في المراجل حتى يكثف البخار ويدفع الاسطوانات ، يستغرق ساعات ، أما اذا استعمل البترول ، فلا يمضي نصف ساعة على تلقي الامر بالرحيل ، حتى تكون السفينة مستعدة للقيام ثم لا تمضي ٣٥ دقيقة أخرى حتى تكون قد بلغت سرعتها العادية وبعد ست دقائق أخرى تبلغ أقصى سرعتها المستطاعة ، يضاف الى ذلك ان الاضطرار الى مواصلة السير ، لا ينهك الرجال الذين في يدهم ادارة الآلات ، وهم يعتمدون على أصابع اليد او اليدين ، ثم ان تموينها بالبترول سهل وسريع ، لا

يقتضي عمّالاً كثيرين وقدراً كالغبار الاسود المتطاير من الفحم الذي تعبئه . ان تموين سفينة الاولمبك بالفحم تستغرق خمسة ايام ويقتضي عمل ٥٠٠ رجل اما تموينها بالبترول فلا يستغرق اكثر من ١٢ ساعة ولا يقتضي اكثر من عمل ١٢ رجلاً . وعلاوة على ذلك ان تموين السفينة بالبترول يمكن ان يتمّ وهي في عرض البحر بواسطة نقالات البترول ، وكل منها لا تخرج عن كونها حوضاً كبيراً عائماً ، تسد الانابيب وفي بضع ساعات ينقضي الامر ، وهذا متعذر اذا أريد تموينها فحماً

هذه الاعتبارات الخطيرة حملت انجلترا وأميركا سنة ١٩١٢ على استعمال البترول في معظم سفن اسطوليهما وحمل المانيا على استعماله في ٢٩ طراداً من طراداتها ودوسيا في جميع سفنها الحربية في بحر بلطيق

اما فرنسا فكانت متأخرة عن مزاحماتها ، عند نشوب الحرب الكبرى ، فكانت لا تملك في اسطولها الحربي سفينة واحدة من السفن الكبيرة ، تسير بالبترول ، ولكنها اصلحت هذا الخطأ بعد الحرب فقد جاء في قول المسيو فلاندان سنة ١٩٢٨ « في المستقبل القريب يعفو أثر الفحم كوسيلة من وسائل الوقود في سفننا الحربية ، وجميع سفننا الجديدة سوف تسير بالبترول »

ويصح القول الآن بأن كل الاساطيل الحربية التي طما شأن دولي ما ، قد عمدت الى استعمال البترول في وحداتها الجديدة ، وقد لا تمضي بضع سنوات حتى تودع السفن البخارية الاخيرة بنفس البسمة الساخرة ، التي ودع بها اسلافنا الاولون من قبلنا السفن الحربية الشراعية التي حاربت في طرف الغار ونافارين

ومن المؤكد انه لو لم تكن انجلترا وأميركا من حلفاء فرنسا في الحرب العالمية ، لكان لعمال فرنسا لسياستها البترولية قبل الحرب سبباً في خذلانها وهزيمتها

لذلك صرح مدير احدى شركات البترول البريطانية « ان الامة التي تسيطر على البترول تتقلد زمام التجارة العالمية فلا الجيوش ولا الاساطيل ولا الاموال ولا كثرة السكان نفسها ، تغني عن البترول في هذا العصر فتيلاً . وصرح المسيو هنري برنجه المندوب السامي « للبترول » في وزارة كلمنصو — قال سنة ١٩١٩ — (من يحز البترول يحز الملك — ملك البحر بالبترول الكثيف (الوسخ) وملك الجو بالبترول المصفى (اي اعلى اصناف البنزين للطيارات) وملك اليابسة بالبنزين والغازولين (للسيارات والدبابات والنقالات والمصانع وغيرها) وملك العالم بالقوة المالية المرتبطة بمادة هي اغنى واقوى واتم سيطرة على الارض من الذهب نفسه »

ثم قال : — ان الامة التي تصبح سيدة لتموين البترول ، تشهد تيارات الملايين من اموال الناس متدفقة نحوها ، لتنفق فيها غنماً له ، فسفن الامم الاخرى لا تستطيع ان تسافر الا اذا دخلت مرافئها وتموّنت من اخوانها . فاذا بنت اسطولاً تجارياً فليس ما يحول دون سيطرتها الكاملة على تجارة العالم البحرية . ثم لا تلبث الصناعات ان تنشأ وتترعرع حول مرافئها ، وتصبح في ايدي مديريها السيطرة التامة على الاعتمادات المالية الدولية ، فتسيطر على الصناعة والتجارة والسياسة نفسها